الباب الثاني : المجتمع والقصة
محاولة لتفسير شيوع القصة

الفصل الثالث
التغيرات الاجتماعية

(1) مسلمة عامة:

لما كنا نقصد في هذه الدراسة القيام بتقديم تفسير سوسيولوجي لظاهرة شيوع القصة القصيرة في تاريخ الأدب المصري المعاصر في الفترة ما بين حرب 1967 وحرب 1973 فإننا مضطرين أن نسلم بأن هذه الظاهرة ظاهرة ثقافية اجتماعية تدخل في ميدان سوسيولوجيا الأدب على أساس أنها تحدث في وسط اجتماعي وثقافي معين فلابد أن تكون الخطوة الأولى في دراستنا تقرير أنها تحدث في وسط وبناء اجتماعي وثقافي معين.

2 – والمقصود بالوسط الاجتماعي والثقافي للظاهرة مجموعة العوامل التي تؤثر في اتجاهها وفي تشكيلها وديناميتها ومختلف عناصرها سواء أكانت هذه العناصر مباشرة أو غير مباشرة.

obeikandl.com

فإذا حددنا الوسط الاجتماعي هذا التحديد ثم نظرنا إلى هذه المسلمة باعتبارها الخطوة الأولى نحو دراسة الظاهرة ، وقارنا بين موقفنا من الظاهرة على هذا الأساس ، وموقف عدد من الباحثين المستشرفين برزت أهمية هذه المسلمة واستطعنا أن نتبين قيمتها فان أوضح ما تقرره هذه المسلمة أن ظاهرة شيوع القصة القصيرة في تاريخ الثقافة المصرية المعاصرة مشروطة وليست كما ذهب بعض الباحثين المستشرقين في أنها ترجع إلى رغبة الفرد المبدع في كتابة هذا النوع من الأنواع الأدبية.

ونحن نرى من جانبنا أن الظواهر الثقافية لا تفسر في ظل الفرد المبدع وحده أو في ظل بيئته الاجتماعية الخاصة وإنما هي تتجاوز هذه الحدود، لأن الوعي الذي يتوافر عنده بشأن التحولات أو التغيرات في البناء وفي الحياة الاجتماعية هو وعي جماعي ناجم عن وعي الجماعة التي يرتبط بها اجتماعيًا واقتصاديًا وتاريخيًا.

وعلى هذا الأساس فإننا نخالف الرأي الذي يجعل ظاهرة شيوع القصة القصيرة في ميدان الإبداع الثقافي في مصر ظاهرة غير مشروطة. والواقع أن رأي الباحثين المستشرقين في فرنسا رأي ينقصه التحقيق العلمي أو التجريبي الدقيق ، وينقصه الفروض التفسيرية ، وسنرى في مواضع قادمة أن هذا الرأي لا يستند إلى أسس موضوعيه محددة لأن الظاهرة تتركب من عملية متعددة تقوم على الفرد المبدع من جهة والمجتمع من جهة ثانية والأثر الأدبي من جهة ثالثة.

على أن قيمة المسلمة التي طرحناها ستضح قيمتها أكثر عندما نطرح عدد من الفروض المفسرة للظاهرة محل الدراسة.

ومن البديهي أننا لا يمكن أن نفسر الظاهرة من داخل الفرد المبدع فحسب ، بالقول أن الكاتب فضل القصة القصيرة عن الرواية فمثل هذا القول لا يجدي إذا كنا نريد تفسيراً موضوعيًا لها ، أضف إلى ذلك أننا هنا بصدد رأي لا يفسر بقدر ما هو في حاجة إلى تفسير: لماذا فضّل نجيب محفوظ القصة القصيرة عن الرواية في هذه المرحلة.

ونحن نفترض أن هناك علاقة سببية بين التحولات الاجتماعية والثقافية السريعة

أو غير المحتملة وبين الاقتصاد في التعبير، أو تناول الحياة من زاوية معينة وبين عدم نشاط العالم النفسي للمبدع لتسجيل تفاصيل الحياة ، وعلى هذا الأساس لا يمكن تفسير الظاهرة بعزلها عن وسطها أو بيئتها أو مجالها.

هذه البداية في تفسير الظاهرة قد التقى عندها معظم الباحثين في مضمار سوسيولوجيا الأدب فجولدمان يرى أن الخطوة الأولى نحو تعليل تغير الشكل البنائي الروائي، هي الكشف عن مجمل خصائص البنيات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الصناعي الحديث ، ويقرر أن الإبداع الأدبي يعد رمزًا للحياة الاجتماعية في كل أبعادها المختلفة ، وهذا التصور يسمح للباحث أو الناقد أن يدرك ملامح الآثار الأدبية وملامح المجتمعات بصورة مجملة. وهذا دليل على أن الكشف عن طبيعة العلاقة بين الفرد المبدع والمجتمع خطوة أساسية في تفسير الظاهرة.

إن المجتمع المصري في الفترة التي تلت حرب 1967 شهد تحولات في البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ذات طبيعة سريعة ، جعلت الفئة المثقفة تصاب بصدمة هائلة بطريقة غير مباشرة؛ فحدث الخامس من يونيو حطم الصورة التي كانت في البناء الذهني عن الدولة والرموز التي تمثلها. إن الوعي بدلالة الحدث وأبعاده الحضارية جعل هذه الفئة تعيش نمطًا جديدًا من أنماط عدم التوازن الفكري والنفسي مع العالم الخارجي.

إن الانفعال ورفض الواقع أو محاولة الهروب منه عند الفئة المبدعة ظهر في شكل أدبي جديد يحمل في ثناياه خروج عن الاتجاهات والتقاليد الأدبية المألوفة ، والفئة المفكرة من المثقفين في ضوء تراثهم الثقافي – رأوا أن السبيل الوحيد من الخروج أو تجاوز الأزمة أو الصدمة هي دفع المجتمع نحو تبني مفاهيم الدولة العصرية أو الحديثة عن طريق الإعلاء من شأن القيم العلمية والعقلية كي يتجاوز المجتمع مرحلة التخلف العلمي والتكنولوجي والصناعي التي يعيش فيها.

أما التيار الديني فقد رأى تجاوز الأزمة أو الصدمة يتمثل في العودة إلى مبادئ وتعاليم الإسلام وتطبيقها في مجال حياة الفرد والجماعة ، وترك المبادئ والتعاليم الاشتراكية التي كانت سائدة في هذه المرحلة جانبًا.

أما التيار اليساري فقد رأى أن تعميق المفاهيم والمبادئ الاشتراكية والتغير الاجتماعي البارز هما السبيلان إلى تجاوز الأزمة نتائج هذا الحدث.

أما التيار الليبرالي فقد رأى في غياب العقلانية في الفكر سببا في حدث 5 يونيو 1967 وطالب بضرورة إجراء تغيرات أساسية تقوم على العلوم الوضعية والتجريبية ومحاولة الجمع بين التراث الثقافي العربي والتراث الثقافي الحديث.

وصاحب هذه التيارات الفكرية موجة من الوعي عند علماء الاجتماع والتكنولوجيا بضرورة تطوير التعليم الفني والجامعي وإنشاء جامعة مستقلة للتكنولوجيا قائمة على أحدث أساليب العلم الحديث مع الوضع في الاعتبار رفض التكنولوجيا الأجنبية لأنها تختفي بمجرد رحيل الخبراء الأجانب.

وكان السؤال الذي شغل المثقفين في هذه المرحلة هو كيف تتحول الرغبات والآمال في تطوير المجتمع إلى حقيقة حية؟ وكانت البداية الأولى للإجابة عن هذا السؤال تتمثل في دراسة خصائص المجتمع المصري من جانب علماء الاجتماع وإنشاء مركز الدراسات الاستراتيجية في عام 1968. هذا الاتجاه صاحبه ظهور مجموعة من القوانين في 1968 وعام 1971 هدفها إجراء تعديلات في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، أبرزها تشجيع رؤوس الأموال الأجنبية على الاستثمار في مصر بعد أن كانت مقصورة على رأس المال المصري في هذا المجال.

إن التغيرات التي أحدثتها الحرب ومظاهر نتائج 5 يونيو 1967 ظهرت في شكل قلق على المستوى النفسي وفي شكل استهلاك في المواد الغذائية غير مألوف رغم الأوضاع الاقتصادية الخاصة التي مرت بها البلاد.

وقد أدى ظهور السوق السوداء إلى نقل ثروات المجتمع إلى بعض جماعات اجتماعية جديدة تنتمي إلى مثل التجار والوسطاء والأفراد ذوي الاتجاهات الرأسمالية الفردية.

والمشاهد أن الرأسمالية الفردية قد تصاعدت خلال الفترة من 1967 إلى 1973 وتراجعت النزعة الاشتراكية واتجه الاقتصاد نحو الطابع الليبرالي والانفتاح على الاقتصاد الغربي.

إن ظروف الحرب قد دفعت الصناعة والتعليم الفني إلى التطور في المدارس الفنية وفي المعاهد العليا وقد شهد الواقع السياسي تغيرات بارزة من الاشتراكية إلى الليبرالية في قرارات أصدرتها الدولة في عام 1971 أطلقت عليها ثورة التصحيح.

وقد أثرت ظروف الحرب أيضًا على الطبقات الشعبية؛ إذ أن الارتفاع المستمر للأسعار ، لمعظم المواد الأساسية التي تستهلكها في الحياة اليومية قد جعل أوضاعهم الاقتصادية تتدهور ، وكان رد الفعل لهذا التدهور يأخذ شكل تعليقات في مختلف مجالات الحياة اليومية، سواء في الحافلات العامة أو في المكاتب أو في المصانع.

على الرغم من هذا التدهور الاقتصادي الذي عرفته هذه الطبقات إلا أنهم كانوا على وعي بضرورة إجراء تعديلات وتغيرات اجتماعية واقتصادية لتجاوز هزيمة الخامس من يونيو 1967 لكن هذا الوعي لم يسمح لهم بتحديد معنى التغيرات في هذه المجالات.

في عام 1969 أجرت مجلة الطليعة ذات الميول اليسارية دراسة على عينات مختلفة من الناس تتراوح مرتباتهم بين 7 إلى 17 جنيه ، وفي هذه الدراسة طرح الباحثون عدة أسئلة تدور حول مشكلاتهم الشخصية ورأيهم في إجراء تغيرات في الواقع الاجتماعي والاقتصادي وكانت إجاباتهم غير محددة وغير واضحة حول القضايا المطروحة.

إن نتائج الحرب أدخلت تغيرات عميقة على الحياة اليومية الاقتصادية، الاجتماعية، ومن أبرز هذه التغيرات الاستهلاك السريع ، للمواد الأساسية والعمل المتواصل في المصانع التي تنتج المواد الحربية هذا بجانب القلق العام عند العامة والخاصة الذي يدفع الفرد والجماعة إلى المزيد من الاستهلاك الغذائي.

الفرد كالجماعة أصبح يتجه سلوكه نحو الاستهلاك الزائد عن حاجته المعتادة. ويعتقد ان هذه اللحظة هي اللحظة المناسبة لاستخدام مدخراته في ظل ظروف غامضة لا يضمن حياته المهددة بين الحين والحين فسماء مدينة القاهرة أحيانا ينطلق فيها أصوات مدافع لا أحد يعلم إذا كانت تطارد طائرات العدو أم أن طائرات العدو هي التي تطلق هذه الضربات ، وأحيانا أخرى يخيم الظلام على المدينة بأمر من رجال الأمن لساعات طويلة.

في ظل هذه الظروف يزداد الاستهلاك بصورة ملحوظة وتستغل فئات من التجار ومن المنتجين هذه الظروف ويقوموا بعمليات تخزين للسلع اليومية لبيعها في السوق السوداء ، وظهور هذا السوق في هذه المرحلة مع ظهور فئات من التجار والوسطاء الذين استغلوا ظروف الحرب ، نقلوا ثروات المجتمع إلى أنفسهم مما أدى إلى ثراء هذه الفئات الاجتماعية بطريقة سريعة.

وكانت الدولة من جانبها تحاول الحد من الاستهلاك وفرض مزيد من الضرائب على الاستهلاك الفردي والجماعي فضلاً عن الضرائب التي كانت تقع على أصحاب الدخول المحدودة.

ومن آثار الحرب أيضًا على الحياة والبناء الاقتصادي زيادة النفقات العسكرية ، وإغلاق قناة السويس وتدهور الدخل الناتج عن السياحة في النصف الثاني من عام 1967 إلى منتصف عام 1968 وقد ارتفعت الأسعار بقرار من الحكومة في هذه الفترة بنسبة 10 ٪ وضريبة الأمن القومي بنسبة 25٪ ومع هذا الارتفاع للمواد الأساسية التي يعتمد عليها العامة بين الناس بدأت تختفي من السوق اليومي. هذا الوضع خلق لدى هؤلاء نمطًا من القلق. واستغلت هذه الظروف بعض فئات من الوسطاء والتجار لصالحهم.

هكذا بدأت تظهر تجارة السوق السوداء ، وتظهر معه ظاهرة تخزين السلع اليومية ويتراجع في الوقت نفسه دور الجمعيات التعاونية التي تمد العامة بالمواد الأساسية.

أما الأسواق الكبيرة القائمة في مدينة القاهرة فكان يحكمها فئة قليلة من التجار الذين كانوا يتحكمون في تحديد الأسعار ، أما عن موقف الحكومة من هؤلاء التجار فكان سلبيًا أو محدودًا حيث لم يعد هناك رقابة على الأسعار، تلك الرقابة التي كانت تمثل دورًا أساسيًا لاتجاه الحكومة نحو حماية عامة الناس من الاستغلال سواء من الرأسماليين أو من الإقطاعيين.

في ظل هذا المناخ تصاعدت رؤوس الأموال الفردية بصورة ملحوظة وكشفت عن تراجع الدولة عن تبني الاتجاه الاشتراكي الذي كان يمثل اتجاه الدولة قبل الحرب فالحرب لم تغير الوجه الاقتصادي في الحياة اليومية فقط بل حولت اتجاه الدولة نحو

الليبرالية وقد ظهر ذلك في شكل تشجيع رؤوس الأموال الفردية والأجنبية على الاستثمار داخل المجتمع.

هذا الاتجاه نحو الاقتصاد الحر ظهر بوضوح في قرارات الحكومة التي أصدرتها في عام 1971 بشأن الانفتاح الاقتصادي على الغرب من أجل أحداث تطور وتغير في الواقع الاقتصادي والاجتماعي في مصر. ولكن هذا الاتجاه كما رأى بعض الاقتصاديين المصريين لا يخدم سوى مصالح الرأسمالية الفردية.

ولكن ظروف الحرب كان لها وجه إيجابي على التكنولوجيا فقد دفعت هذا الأخير نحو التطور خاصة الصناعات الحربية ، التطور الكيفي والكمي في وقت واحد ، فقد شاع في تصور الناس والحكومة في هذه المرحلة أن الهزيمة التي خلفتها حرب 1967 إنما ترجع إلى عدم قدرة المصريين على استعمال أساليب التكنولوجيا الحديثة.

وعلى هذا الأساس وجهت الدولة عنايتها إلى التعليم الصناعي والفني في المدارس والجامعات ، وأنشأت كليات جديدة مثل كلية التكنولوجيا ، والإلكترونيات ، والبترول.

في هذا المناخ العام كان الأدباء والمثقفون يعيشون هذه الظروف ، ظروف تحول المجتمع على المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي ، وكان هذا التحول يتسم بالسرعة والتصورات غير المحتملة، وكانت طبيعة هذه التحولات لا تتيح للفرد المبدع أن يتصور الخصائص العامة للإطار العام للمجتمع. وكان طبيعيًا أن ينصرف عن هذه الواقع وينعزل عنه أو ينطوي عنه حتى يفهم طبيعته واتجاهاته.

بحيث يمكن أن يقال إن أصحاب النزعة الواقعية أو الاشتراكية في الأدب قد صدموا صدمة بالغة وكانوا في مقدمة من يتساءلون عن القيم والأفكار والاتجاهات التي يجب أن ينتموا إليها، إذ أن التغيرات الجديدة وضعتهم أمام هذا السؤال بطريقة مباشرة.

كيف يتم التكيف مع هذا الواقع الجديد ، ولم يطرح هذا السؤال أصحاب هذه النزعة فقط إذ كان السؤال يواجه الغالبية من الأدباء والمثقفين لأن كل واقع جديد يتطلب من الفرد المبدع وغير المبدع أن يواجه التغيرات الجديدة في معظم لحظات الحياة وهو مضطر أن يخطو خطوات جديدة في سبل مجهولة.

وعلى هذه الأساس واجه الفرد المبدع بخاصة والفرد المثقف بعامة صراع داخلي معين بين الاعتراف بالواقع الجديد أو البقاء مع الواقع القديم ، ذو الاتجاه الاشتراكي الثوري ورفض الواقع الجديد ذو الاتجاه الليبرالي الرأسمالي.

والواقع أن التحول أو التكيف مع الواقع الجديد لا يتم بين لحظة وأخرى، إنما يقتضي زمن معين يستوعب فيه الفرد المبدع عناصر واتجاهات هذا الواقع الجديد وكل تحول جديد في الواقع يصاحبه عادة محاولة للتكيف تنسجم مع طبيعته ومع اتجاهاته.

ويسبق مرحلة التكيف هذه مرحلة من الاستيعاب والفهم لمجمل خصائصه ، وفي هذه المرحلة يتجه الفرد المبدع نحو عالمه الباطني. ليعيد تنظيمه لمواجهة الواقع الجديد وعادة ما يأخذ في بادئ الأمر نمطًا من الانطواء قد يأخذ صورة فرار من الواقع أو يأخذ صورة معتدلة للموائمة بين البناء النفسي وبين بناء ذلك الواقع.

وعلى هذا الأساس سادت في مرحلة ما بعد 1967 مظاهر انطواء عند أغلب الأدباء أو الكتاب أو المثقفين نحو واقع جديد يتطلب فهمًا وتكيفًا جديدًا وفي استطاعتنا أن نعتبر الاندفاع في الاتجاه العبثي أو الرمزي المغلق الذي ظهر في أعمال رواد الأدب المصري مثل نجيب محفوظ ويوسف إدريس في هذه المرحلة مظهرًا من بين هذه المظاهر.

فهذا الاتجاه يحمل في ثناياه دلالة الانطواء وعدم الوعي بالإطار العام للمجتمع. وهو سمة تميزه عن الاتجاه الأدبي السابق لهذه المرحلة عند الكاتب أو المبدع ألا وهو قطع الأوشاج التي تصل بين الكاتب والمجتمع.

وهكذا كان الأثر القصصي في هذه المرحلة يتجه نحو التعبير عن الواقع الداخلي أكثر من الواقع الخارجي يقول نجيب محفوظ: " أحداث أواخر الستينيات كانت أفظع أحداث هزت كياني (..) كنت أشهر أنني منفعل باستمرار ، وليس لدى موضوع محدد (..) لعل همي الأول كان التعبير عن شعوري المضطرب ".

وهذا ما يجعلنا نفهم كيف أن التعبير الأدبي أو الفني كان مهمته ليست في أن

يقدم صورة الواقع الخارجي الجديد ولكن في أن يقدم صورة الواقع الداخلي الجديد. هذا الاتجاه هو الاتجاه الذي فرض نفسه على الكاتب. فأصبح التعبير الأدبي أو الفني عنده بمثابة عمل يحقق نمطًا من التوازن النفسي بين الكاتب والعالم بمعنى ما من المعاني.

فإذا نظرنا لهذا الاتجاه في ضوء التغيرات التي طرأت على الواقع الخارجي في هذه المرحلة أمكننا أن نعرف كيف أنه كان ضرورة ملحة على الكاتب وكيف أنه كان محصلة لتفاعل بين عالم الكاتب الداخلي وبين متغيرات العالم الخارجي.

obeikandl.com

مراجع الفصل الثالث

(1) محمد أنيس، "دراسات في المجتمع المصري"، القاهرة، 1967.

(2) C. Vial, L., Egypte diaujourd'hui, ouvrage collectif, Paris, 1977.

(3) صلاح الحديدي، "شاهد على حرب 67"، القاهرة، 1973.

(4) سيد عويس، "حديث في الثقافة"، القاهرة، 1968.

(5) ذكي نجيب محمود، "تجديد الفكر العربي"، بيروت 1974.

(6) "مجلة الطليعة"، أعداد إبريل، ويونيه، وسبتمبر، القاهرة، 1967،

(7) "مجلة روز اليوسف"، عدد 24 فبراير 1975، وعدد أكتوبر 1973، وعدد أغسطس 1974، القاهرة.

(8) G. Bouthoul. La gurre, Paris, 1973.

(9) طارق البشري، "الناصرية والديمقراطية"، القاهرة، 1975.

(10) محمود عورة، "الوعي المفقود"، القاهرة، 1975.

(11) توفيق الحكيم، "وثائق فيطريق عودة الوعي"، بيروت، 1975.

(12) "الأهرام الاقتصادي"، سبتمبر ونوفمبر وديسمبر، 1969.

obeikandl.com